210669 ـ تعرض له وساوس إلحادية

السؤال

أنا في محنة ، فأنا مسلم أقوم بالعبادات ، والمشكلة أنه منذ فترة تراودني أفكار ملحدة عن وجود الإله والعياذ بالله ، وهذا كان قبل الحج ، وحتى بعد الحج ، وترجع تلك الأفكار في كل مرة ، وأحاول ترويض عقلي بالبحث في العلوم ، مثل نظرية الانفجار العظيم ، ما يزيد من إرباكي .

فما هو الحل ؟ ، وماذا يقول الإسلام عن نظرية الانفجار العظيم ؟

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

من نافلة القول التي ينبغي عليك استحضارها دائما : أن العقل البشري أضعف من أن يحيط بالعلوم ، ويدرك كنه الكون ، ويشرف على حقائق الحياة ، فهو عقل قاصر يعيش " مهزلة " ـ بحق ، حين يوكل إلى نفسه ، أو يستغني عن العاصم له عن الضلال !!

وبحسبه من كل ذلك : أن يبذل جهده في البحث والتفكر والتأمل ، ويتمسك بالدلائل التي يكتفي بها العقل البشري السليم ، الذي لم تلوثه الشكوك والظنون والشبهات ، ولم تضعف جوانب اليقين فيه كثرةُ الأوهام .

فذلك هو العقل السليم الذي خاطبه الله عز وجل في كتابه الكريم ، وجعله مناط التكليف ، وما سوى ذلك من العقول الشكاكة ، فهي بحاجة إلى إعادة تأهيل لتعود إليها الثقة في الحقائق والمبادئ الفكرية ، وتتفاعل مرة أخرى مع حقائق الإيمان ، فالوسواس الإلحادي أقرب إلى المرض ، والحالة الاضطرابية منه إلى التفكير العلمي المبني على الحجة والبرهان .

يقول الله عز وجل : (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ . الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ) الملك/1-3.

والتجربة تدل على أن أوائل الشباب هو العمر المعرض للاضطراب الفكري ، والتشويش العقائدي ، ويبدو أن الأمر يمكن إرجاعه إلى أسباب فسيولوجية بدنية ، لو تيسرت الدراسات العلمية في هذا الإطار ، وإلى حين ذلك يمكن عزو هذه الظاهرة إلى الطبيعة البشرية التي تقوم كثيرا على حب التعرف والتشوف إلى كل غريب أو جديد ، والإلحاد فكرة جديدة على الإنسانية ،

أو هي نزعة وطور فردي في صاحبه ، لها بريق جذاب من جهة التميز والانفراد بحال عن جميع الناس ، وكأن معتنقها يقول إنني المتفرد بكسر الطوق الذي اعتدتم عليه ، ونشأتم على اعتقاده والإقرار به ؛ أيا كان هذا الأصل ، وأيا كان صواب الفكرة التي خرج إليه ، والحال التي تميز بها ، كما يذكر أن رجلا بال في زمزم !! فسُئل عن ذلك : فقال : أردت أن أُذكر ، ولو بالشر !!

ويبدو أن المسكين لم يعلم ، أو لم ينتبه إلى أن الدواب كانت أكثر تعقلا منه ، حين نجدها وكأنها تعلم بمبدأ السببية ، وتعلم أن الفعل لا بد له من فاعل . يقول الله عز وجل : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) الحج/46.

وقد نستعين بتجارب الحياة اليومية ، كي ندلل لمن تعرض له هذه الوساوس بأنها مجرد وسوسة لا حقيقة لها فهو يخالفها في حياته اليومية ، فالممارسات اليومية للإنسان الطبيعي السوي كلها تنطلق من المبادئ العقلية السليمة ، وغالبا تبقى على فطرتها وسلامتها ، ولا تتعرض للتشويش والاضطراب إلا في حالة (الجنون) لا قدر الله .

فتأمل هذه الأمثلة السهلة التي ولا شك تؤمن وتقر بها :

أرأيت لو كنت جالسا في منزلك فسمعت صوت جرس الباب ، فهل تتردد في التفاعل مع هذا الصوت ! ألا تبادر في القيام للنظر فيمن ينتظر على الباب ! ما الذي يدفعك لمثل هذه المبادرة!! أليست هي المسلمات العقلية البدهية التي نعيش ونحيا بها ، التي تخبرنا أن الفعل لا بد له من فاعل ، وأن الأثر لا بد له من مؤثر !!

ثم تصور معنا لو أنك أفسدت هذه المسلمات بالشبهات العقلية والوساوس الفلسفية ، فرحت تتأمل في الاحتمالات العقلية الممكنة لتفسير ذلك الصوت ، والنظريات التي يمكن أن تعرض في هذا المقام ، من مثل دعاوى " الصدفة "، أو وقوع الخلل في " شبكة الكهرباء "، أو " العطل الذي يصيب أنواع الجرس والمنبهات "، أو حتى احتمالات من أمثال أن أحدهم يتلاعب بدق الجرس والفرار فورا .

ونحو تلك الاحتمالات التي لا ننكر قيامها ، ولكننا نعلم ـ أيضا ـ أنها خلاف الأصل والمعهود ، ولا تَرِدُ على العقل البشري إلا إذا تكلف التفكير فيها ، وخطؤه أنه يجعلها معارضة للمبادئ الثابتة ، والقواعد المطردة ، التي لولاها لتساوى العاقل والمجنون في هذا الكون ، ولذلك يعيش الملحد جنونا في تفكيره بالخالق ، ولكنه في حياته اليومية يعيش سليما بعيدا عن الجنون ، فيبادر لفتح الباب بعد سماع صوت الجرس ، للتعرف على طالب الدخول ، ولا يتردد لحظة في ذلك ، وهكذا يفعل إذا رن هاتفه ، أو طرأ عليه أي حادث جديد ؛ فإنه سوف يبحث ـ حتما ـ عن مُحدثه ، وفاعله !!

وتخيل معنا كم هو مثال يسير لا يستغرق لحظات من حياة الإنسان ، ولكن له فيه العظة والعبرة.

فكيف لو رحنا نضرب الأمثلة في جميع شؤون الدنيا ، أو لو رحنا نعدد القواعد المطردة في هذا الكون ، والتعقيد المدهش في تفاصيله ، والإعجاز المبهر الذي يتكشف للبشرية يوما بعد يوم ، ثم بعدها ننسى جميع ذلك ، وننسى كل ما جاء به الأنبياء وما أخبروا به ، ونخالف مسلمات العقول ومبادئها ، كل ذلك لأجل احتمالات ونظريات عقلية (طارئة) عارضنا بها البدائه الثابتة.

ألا تسلم معنا أن هذه هي المشكلة الكبرى ، فليس لمن تعرض له هذه الوساوس حاجة إلى التأمل في نظرية الانفجار العظيم وغيرها ، بقدر ما هو بحاجة إلى إعادة تهيئة في الطريقة السليمة التي يتعاطى بها العقل السليم مع معطيات هذا الكون !!

يقول الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله :

" الناس جميعا ، المؤمن منهم والكافر ، والناشئ في صوامع العبادة ، والمتربي في مخادع الفسوق ، اذا ألمّت بهم ملمّة ضاقوا بها ذرعا ، ولم يجدوا لها دفعا ، لم يعوذوا منها بشيء من هذه الكائنات ، وإنما يعوذون بقوة وراء هذه الكائنات ، قوة لا يرونها ، ولكنهم يشعرون بأرواحهم وقلوبهم ، وكل عصب من أعصابهم بوجودها ، وبعظمتها وجلالها . يقع هذا لكثير من الطلاب أيام الامتحان ، ولكثير من المرضى عند اشتداد الألم وعجز الطبيب . كلهم يعودون إلى ربهم ، ويقبلون على عبادته .

فهل سألتم أنفسكم ، ما السبب في هذا وأمثاله ؟ لماذا نجد كل من وقع في شدة يرجع إلى الله ؟ نذكر جميعا أيام الحرب الماضية ، والتي قبلها ، كيف كان الناس يقبلون على الدين ، ويلجؤون إلى الله . الرؤساء والقواد يؤمّون المعابد ، ويدعون الجنود إلى الصلاة .

ولقد قرأت في مجلة (المختار) المترجمة عن مجلة (ريدر زاديجست) ، مقالة نشرت أيام الحرب ، لشاب من جنود المظلات (يوم كانت المظلات والهبوط بها شيئا جديدا) يروي قصته فيقول : إنه نشأ في بيت ليس فيه من يذكر الله ، أو يصلي ، ودرس في مدارس ليس فيها دروس للدين ، ولا مدرس متدين ، نشأ نشأة (علمانية) مادية ، أي مثل نشأة الحيوانات التي لا تعرف إلا الأكل والشرب والفساد ، ولكنه لما هبط أول مرة ، ورأى نفسه ساقطا في الفضاء ، قبل أن تنفتح المظلة ، جعل يقول : يا الله يا رب . ويدعو من قلبه ، وهو يتعجب من أين جاءه هذا الإيمان ؟

وبنت (ستالين) نشرت من عهد قريب مذكراتها ، فذكرت فيها كيف عادت إلى الدين ، وقد نشأت في غمرة الإلحاد ، وتعجب هي نفسها من هذا المعاد . وما في ذلك عجب ، فالإيمان بوجود إله شيء كامن في كل نفس ، إنه فطرة (غريزة) من الفِطَر البشرية الأصلية ، كغريزة الجنس ، والإنسان (حيوان ذو دين).

ولكن هذه الفطرة قد (تغطيها) الشهوات والرغبات والمطامع ، والمطالب الحيوية المادية ، فإذا هزتها المخاوف والأخطار والشدائد ألقت عنها غطاءها فظهرت . ولذلك سمي غير المؤمن (كافرا) ، ومعنى الكافر في لسان العرب (الساتر)...

في قرارة نفس كل إنسان الإيمان بإله ، هذه حقيقة نعرفها نحن المسلمين ؛ لأن الله خبرنا أن الإيمان فطرة فطر الناس عليها . وقد عرفها الإفرنج من جديد ، (دوركايم) أستاذ الاجتماع الفرنسي المشهور له كتاب في أن الإيمان بوجود إله بديهية .

لا يمكن أن يعيش الإنسان ويموت من غير أن يفكر في وجود إله لهذا الكون ، ولكنْ ربما قصر عقله فلم يهتد إلى المعبود بحق ، فعبد من دونه أشياء ، عبدها على توهم أنها هي الله ، أو أنها تقرب إلى الله .

فإذا جد الجد ، وكانت ساعة الخطر ، رجع إلى الله وحده ، ونبذ هذه المعبودات .

مشركو قريش ، كانوا يعبدون (هبل)، و (اللات)، و (العزى)، حجارة وأصنام ، (هبل) صنم من العقيق، جاء به (عمرو بن لحيّ) من عندنا ، من (الحمّة) قالوا له : إنه إله عظيم قادر ، فحمله على جمل وجاء به ، فسقط على الطريق فانكسرت يده ، فعملوا له يدا من ذهب . إله تنكسر يده ! وكانوا مع ذلك يعبدونه !! يعبدونه في ساعات الأمن ، فإذا ركبوا البحر ، وهاجت الأمواج ، ولاح شبح الغرق ، لم يقولوا : يا (هبل). بل قالوا : يا الله .

وهذا مشاهد إلى اليوم عندما تغرق السفن ، أو تشب النيران ، أو يكون الخطر ، أو يشتد المرض ، تجد الملحدين يرجعون إلى الدين . لماذا ؟ لأن الإيمان غريزة ، أصدق تعريف للإنسان أنه (حيوان متدين) .

وانظروا إلى هؤلاء الملحدين الماديين ، عندما يأتيهم الموت ، هل تظنون أن (ماركس) أو (لينين) لما أيقن بالموت، دعا (وسائل الإنتاج) التي يؤلهها ، أم دعا الله ؟ ثقوا أنهما لم يموتا حتى دعوا الله ، ولكن حين لا ينفع الدعاء . و(فرعون) تكبر وتجبر ، وقال : أنا ربكم الأعلى . فلما أدركه الغرق ، قال : (آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل ..) " انتهى من " تعريف عام بدين الإسلام " (ص/45-48) .

وللفائدة : ينظر جواب السؤال رقم (12315) ، ورقم (39684) .

والله أعلم .